



This work is licensed under a [Creative Commons Attribution 4.0 International License](https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/)



RAHAT-UL-QULOOB

Bi-Annual, Trilingual (Arabic, English, Urdu) ISSN: (P) 2025-5021. (E) 2521-2869
Project of RAHATULQULOOB RESEARCH ACADEMY,
Jamiat road, Khiljiabad, near Pak-Turk School, link Spini road, Quetta, Pakistan.
Website: www.rahatulquloob.com

Approved by Higher Education Commission Pakistan

Indexing: » Australian Islamic Library, IRI (AIOU), Tahqeeqat, Asian Research Index, Crossref, Euro pub, MIAR, ISI, SIS.

TOPIC:

أدب المقاومة في أقاليم توات جنوب الجزائر

Literature of Resistance in the Provinces of Touwat, Southern Algeria

AUTHORS:

1. Prof. Dr. Ahmed Jafri, Ahmed Deraya adrar Afriqi University, Al-Jazaer
Email: adjaafri@univ-adrar.dz
orcid id: <https://orcid.org/0000-0003-4743-3009>
2. Dr. Muhammad Iqbal, Assistant Professor, NUML, Islamabad.
Email: mhiqbal@numl.edu.pk
orcid id: <https://orcid.org/0000-0002-5633-4988>

How to Cite: Jaafri, Prof Dr Ahmad, and Dr. Muhammad Iqbal. 2021.

“ARBIC: أدب المقاومة في أقاليم توات جنوب الجزائر: Literature of Resistance in the Provinces of Touwat, Southern Algeria”. *Rahatulquloob* 5 (1), 14-26. <https://doi.org/10.51411/rahat.5.1.2021/181>.

URL: <http://rahatulquloob.com/index.php/rahat/article/view/181>

Vol. 5, No.1 || January–June 2021 || ARBIC-P. 14-26
Published online: 05-03-2021

QR. Code



أدب المقاومة في أقاليم توات جنوب الجزائر

Literature of Resistance in the Provinces of Touwat, Southern Algeria

1أحمد جعفري، 2محمد إقبال

ABSTRACT:

Arabic literature of resistance in general and Algerian in particular in its field championships and the good management of their proud leaders, inflamed many *Touwatia* feelings and interacted with them positively with many poems and creative texts, describing proud and sometimes inciting callers, and disaffected revenge from the scourge of injustice and occupation crimes at another time. The literature of resistance or political poetry in its broadest and most comprehensive sense is poetry that is organized in a matter of politics or governance, and it is in many forms, including national poetry that praises the glories of the nation, including the liberal poetry that has been associated with the emergence of resistance movements and liberation organizations in the Arab world against modern forms of colonialism, Thus, this type incites and calls for liberation from colonialism and accompanies these movements in its path. This literary paradigm has determined the fact that the poets of *Touwat* would not separate them from the concerns of their nation and the issues of their religion, the barrier of time and place or the rest of the other barriers, so they recorded their national presence with full pride and pride, and these texts were the best testimony of the impact of all of them on the course of the nation's events, so they participated in providing them first, history is second to it, which reflects the culture of everyone and their follow-up to all historical events.

Keywords: Arabic Poetry, Resistance Literature, Touwat, Algeria.

لقد ألهبت المقاومات العربية عامة والجزائرية خاصة في بطولاتها الميدانية وحسن تدبير قادتها الأفاضل عديد المشاعر التواتية وتفاعلوا معها إيجاباً بعدد القصائد الشعرية والنصوص الإبداعية واصفين مفتخرين وداعين محرضين حيناً، وساخطين منتقمين من ويلات الظلم وجرائم الاحتلال حيناً آخر.

وأدب المقاومة أو الشعر السياسي في معناه الأوسع والأشمل هو الشعر الذي يُنظم في شأن من شؤون السياسة أو الحكم، وهو ضروب عدة منها الشعر الوطني الذي يتغنى بأمجاد الوطن، ومنها الشعر التحرري الذي ارتبط بظهور حركات المقاومة والمنظمات التحررية في الوطن العربي ضد أشكال الاستعمار الحديثة، فجاء بذلك هذا النوع محرّضاً وداعياً إلى التحرر، من قيد الاستعمار ومُصاحباً لهذه الحركات في مسيرتها. ولعلَّ صرخة التواتيين في وجه المحتلِّ بشكْلِ عامٍ كانت كجميع الصرخات في هذا المجال قديمةً وممتدةً امتداد ظهور الإنسان على وجه هذا الإقليم، ولعلَّ أقدم ما حفظته لنا ذاكرةُ الزمن في هذا المجال وتناقلته الأجيالُ جيلاً بعد جيلٍ صرخة الشيخ سيدي محمد التواتي التي انطلقت من رحم القرن التاسع الهجري الخامس عشر

الميلادي، وما سجّله وبلغ صداها آذان المحتل الإسباني لمدينة وهران حينها. والشيخ سيدي محمد التواتي هو واحد من أبرز علماء بجاية خلال القرن التاسع الهجري حيث أسس بها زاوية مشهورة، وعُرف بوقفته البطولية في وجه المستعمر الإسباني وله في ذلك نص شعري حرض به أهل وهران على التصدي للغزو الإسباني، والدفاع عن مدينتهم. كما يقول في مطلع هذه القصيدة¹:

يا أهل وهران انظروا نظراً شفقة
ولم تكلّوها غيركم ولئن يكن
وقبل مجيء المنشآت ببحرها
فما غائب مثل القيّم ببدة

إلى أن يقول:

فجودوا بفضل المال في حفظ كله
وما يغني عنكم ما لكم إن أتاكم
وأهل وجيران وشيخ وصيبة
وقد عظم الله الديار خروجهما
عدو بليل بسدفة سحرة
فإن لم يكن في الغرب أكبر غيرة
فحذرتكم والله يعلم نيتي
وفي الأندلس فجعة أي فجعة

إلى أن قال:

فلا تهملوا أمر الأعداء فإنهم
وقد قطعوا قطعاً فإن ظفروا بكم
بجال اجتماع واتفاق وشدة
وقد كانت بلاد الغرب تحمي ديارهم

وأخير عاد إلى ضرورة التأكيد على رجال أهل الجزيرة بالنظر إلى خبرتهم الحربية في حماية المرسى وعدم التفريط فيه لأن ضياعه كما قال هو ضياع للبلاد الإسلامية شرقاً ومغرباً.

وإن ضاع مرساكم فإن ضياعه
ولا يحرم مرساكم ضعاف رجالكم
ضياءً بلاد الله شرقاً وقبله
فإن لهم بالطعن والضرب خبرتة
ولا البدؤ بل تحميه أهل الجزيرة
أخواننا في الله ألقوا مسامحةً
وكم فتكوا بالكفر أكبر فتكة

والشاعر سيدي محمد التواتي في صرخته وغيرته يذكرنا بالشاعر العربي لقيط بن يعمر الأيادي في ندائه المستعجل

لقبيلته أياذ ينههم فيها من غدر الملك كسرى، حين قال:

أبلغ إيادا وخلل في سرائهم
إني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا

فالشاعر لقيط بن يعمر، وإن قبض عليه وزج به في السجن أخيراً إلا أن صرخته بقية شاهدة على وفاء الرجل وغيرته على أبناء قبيلته. وفي القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي سجّل التواتيون حضورهم الأدبي في الحملة

الصليبية الفرنسية على مصر بقيادة نابليون في سنة 1798م². وضر بهم للأزهر الشريف بالقنابل من القلعة، واتخاذ اصطبلًا للخيول، ومحاولة اقتلاع المصريين عنوة من الإسلام. حيث تحدث عن ذلك مطولاً كل من الشاعر سيدي عبد الله بن سيدي عبد الرحمان بن عمر التنلاني (1221هـ) والشاعر الشيخ سيدي المختار الكنتي (1226هـ) والشاعر سيدي أحمد زروق البداوي (1244هـ) وغيرهم. يعتبر الشيخ سيدي عبد الله بن الشيخ سيدي عبد الرحمان بن باعومر التنلاني (1221هـ) من الأوائل الذين تفاعلوا مع هذا العدوان الغاشم، وذلك حضوره بأكراً في الموضوع بنظمه لقصيدته³ المعروفة بـ "الحلة الفاخرة في

طلب فتح مصر والقاهرة"، والتي وردت في أزيد من أربعين بيتاً، وقال فيها على إيقاع البسيط، جاء فيها:

الله أكبر جل الخطاب عيانا	وقد أتينا ومنا أصل بلوانا
يارب قاعدة الإسلام حل بها	أمر عظيم لها لنا وأشجانا
الروم أخزاهم الإله قد ملكوا	مصر العتيق وجزءه وه سهمانا
الكفر قد خففت أعلام رقبته	وديننا قد بداه اليوم نقصانا
يا غمة لبني الإسلام نالهم	بهذه النكبة الصماء خسرانا
يا بهجة النور يا مصراه حل بنا	بما دهاك تحسر.....

وبعد هذه الاستغاثة المدوية لما حلَّ بمصر العتيق من كفار الروم شرع الشاعر في تعداد مظاهر الخسارة والخراب الذي سيحل من جراء هذه النكبة، فلا أحد يستطيع بعد الآن أن يرتاد المساجد أو المدارس، ولا أحد يستطيع أن يتصفح المصحف الشريف ولا أن يفتح كتاباً من تلك الكتب الكثيرة التي تحمر بها خزائن مكتبات الأزهر الشريف، وليت الأمر وقف عند هذا الحد بل إن الفساد انتقل إلى المساجد التي حولت إلى كنائس لعبادة الأوثان:

من للمساجد يا غوث يعمرها	من للمدارس يستجيب لهفانا
من للمصاحف والكتب التي جمعت	بالأزهر الرحب يكفلنها يقظانا
من للمشاهد في سفح المقطم من	لمشهد السبط يحفظنه إعلانا
أتنشرون المسوخ وسط مسجدا	ويعتريه من أهل الكفر نشوانا
ويعبدون الصليب في مساجدنا	ما مثلها نكبة في الدهر تخشاننا

بعد هذا لجأ الشاعر إلى الله عز وجل متضرِّعاً وداعياً نصره وتأييده للمؤمنين بأن يردَّ عليهم ديار الإسلام، وأن يفتح عليهم قاعدةً إسلاميةً أكبر لتنسيهم أخزاهم في ما حلَّ بهم، وتكثَّبت عنهم أفراس جيش الروم.

والشاعر في دعائه وتضرعه لله سبحانه وتعالى بدأ مُلجِّعاً حين تشفع في ذلك بالعرش المجيد، وبالكرسي الجليل، وباللوح المكرم والملائكة المقربين، بالإضافة إلى المشفع أحمد، وبقية الرسل الكرام، وبآل بيت النبي وجملة الصحب والأئمة الكرام:

إن لم تعاف وتعف يا رحيم فمن للمؤمنين مؤيدا ورحمانا

إننا استجرنا بك اللهم يا صمد
وقد تشفعنا بالعرش المجيد وبالر
وبالملائكة المقربين وباللوح
وبالممجد أحمد الشفيق وبالر
وآل بيت الرسول والمحب لهم
وبالأئمة أهل العلم كلهم
بالغوث بالنقيب السالكين وبالر
اردد على ملة الإسلام مصر وخذ
وافتح على المسلمين بعد قاعة
لتكتب الروم والإسلام في فرح
ورد ألفتنا وارحم صراعتنا
وقر أعيننا بذلك عن عجل
الله الله جل الله خالقنا
من أنت ناصره لا يفتشي أحدا
فاقبل صراعتنا إليك يا أحد

وفي الأخير ختم الشاعر نصّه بجملة من الأدعية على عادة كثير من الشعراء في مثل هذه المناسبات طالباً العفو والمغفرة

لما اقترف من مظالم بسبب كثرة الذنوب، فالسعيد كما قال - هوسوي من وهبه الله صدق التعبد في السر والعلانية:

ظلمنا أنفسنا والعفو منك لنا
منا الجفاء ومنك الخلم يا أملي
نور بصائرنا تفضلاً وأزل
لا تهلكتنا بما اقترفنا من سفه
عودتنا كرماً فاختر علينا به
رحماتك نرجوه يا رحمان هبه لنا
ليس السعيد سوى من قد وهبت له
اغفر لنا يا رب كل الذنوب ولا
واجعل الهي ختم العمر منا على

فضلاً فليس إلى سواك شكوانا
أسبل على عبدك المغتر إحسانا
غشاوة الذنب يا من ليس ينسانا
وارفع يد الأخذ عنا منك نجانا
إذ أنت أهل الجود قد كان ما كان
ت ولم يزل حفظك الجميل يرعانا
صدق التعبد أسراراً وإعلاناً
تعجل عواقبنا ظلماً وطغياناً
الدين القويم وأحسن فيه محياناً

وارحم أيتنا والوالدين ومن
يُنى إلينا ومن بالقرب يغشانا
وصل ياربنا على الرسول الذي
فارق النبيئين منصبا وتبانا
وآله الغر والأصحاب ما طلعت
شمس وما هزت الجُتوبُ أغصانا
وما تملق عبد الله ملتجئا
ببابك الرحب يرجوا منك غفرانا

والشاعر الشيخ سيدي عبد الله⁴ بن سيدي عبد الرحمان بن باعومر التتلائي، هو واحد من أكبر وأهم علماء وفقهاء توات، أخذ عن والده وعن الشيخ سيدي محمد بن أحمد، وكان فلامازقا للشيخ سيدي عمر بن الحاج عبد الرحمان المهداوي توفي سنة (1221هـ) ودفن بقصر باعبد الله ضواحي المدينة أدرار. ومن الشعراء التواتيين الذين تفاعلوا مع هذه الحملة الصليبية، نذكر الشاعر سيدي أحمد زروق⁵ الجعفري البداوي الذي اتخذ من المناسبة نقطة ارتكاز أساسية في تشجيعه وتحريضه على الجهاد ضد جيوش الكفر. ولد أبو العباس أحمد زروق بن صابر البداوي الجعفري بقصر بودة، وبها ترعرع وأخذ عن الشيخ سيدي محمد الونقالي وعن الشيخ سيدي محمد بن أحمد الزجلالي، ثم سافر بعد ذلك لفاس، وأخذ عن علماء أجلاء، منهم الشيخ التاودي، ولما بلغ ما بلغ من مقام العلم تولَّى شؤون القضاء بالديار الفاسية نفسها، ول يعود بعد ذلك إلى مسقط رأسه توات، وبها تصدَّر للقضاء والفتوى كذلك لفترة معتبرة من الزمن، تُوفي على الأرجح يوم الأربعاء السابع عشر من شهر رمضان عام 1245هـ وقيل سنة 1244هـ.

وعلى خلاف الشاعر سيدي عبد الله، فقد وجد الشاعر الشيخ سيدي أبي العباس سيدي أحمد زروق بن محمد بن موسى بن صابر الجعفري (1244هـ) في حملة نابليون على مصر سنوات (1798/1801)، وما أبداه المسلمون من بسالة وشجاعة في مقاومتهم للجيش الفرنسي في دخولها إلى باحة حرم الأزهر الشريف، والتي أنست جيوش الروم جميع ما حَقَّقوه من نصر في جزيرة مالطة - قلت - وجد الشاعر في كل هذا وغيره مناسبة متميزة للوقوف عندها بهذه القصيدة⁶ المعبرة التي جاءت على إيقاع السريع، وشارك بها عموم المسلمين فرحتهم بهذا النصر، وراح يذكر فيها الفرنسيين بسوء طالعهم:

قل للفرنسيس كبا جدكم
البر والبحر بساط لكم
حسبتم مصر كما لطة
هيهات هيهات لا مفر لكم
من آل عثمان أتاكم فتى
أسيد غضاب فوق صافنة
تحن للهيجاء أنفسهم
يعتقدون القمل حلوا الجنا
نفوسهم باعوا وأموالهم
وردتم ووردا بلا مصدر
لا فوت إن الله منهم بري
وصادق اللهجة كالمفتري
إلا على الصارم والسمر
لأخذ ثأر الدين في معشر
في طالع يسمو على المشتري
من غير ما درء ولا مغفر
وطعمه أحلى من السكر
بجنة وربنا المشتري

كل فتى يا ويلكم باسل	ندب همام طيب العنصر
جموعكم ما بين قتلى ومن	في القيد يختال بلا مئزر
جنى على كلكم راية	وقول جمهوركم المتمر
ما هي بالأولى عليكم لنا	وما عدتم قط بالخنصر
وقائع بالشام غر لنا	هلكتم فيها بلا منكر
وحبذا يوم العرائش في
حشدتم الأبطال في زعمكم	فشربوا كأس الردى الأحمر
ما فات أنجاد السواحل من	قد فر منكم يا بني الأصفر
ولانجا من مر في زورق	من طالب في الشيخ الأخضر
طالعة من بعض أجنادنا	قد جلدتكم دونما عسكر
لولا البحور الخضر من دونكم	ما عمركم يمتد في معمر
ولانجوتم من فوارسنا	في حضر كنتم أو في سفر
ويل بني الصفر أيديهم	صفر من المامول والمتجر
دماءكم طلت وأمواكم	ولكم الويلات في المحشر
أدام ربي نصر دين الهدى	وذل عباد الهوى الأخر
وأيد الله أئمتنا	بمرد من ملكه الأكبر
واختص مولانا سليمان	بالتمكن والتأييد والظفر
ونصر الله عساكرنا	بجرمة المختار في مصر
صلى عليه الله ما ابتهجت	نفوس أهل الحق بالوطر
خير صلاة وسلام بلا	حديفوق أرج الزهر
ورضى الله عن الآل وال	أصحاب أعلام الهدى الغرر

والشاعر في معرض حديثه عن نشوة الفرخ في نصر المسلمين على الروم. راح يذكر الأعداء بداية بجوهر الفرق بين مصر التي تحامى أهلها لنصرتها⁷ وبين جزيرة مالطة التي استسلمت في وجه جيوش الإنجليز الذين لم يجدوا مقاومة تذكر، وأصبحت الجزيرة من يومها مركزا لحماية السفن التجارية بين إنجلترا والهند والصين. والشاعر حين يتحدث عن الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي فهو يراهما وجهان لعملة واحدة عي عملة الكفر والحروب الصليبية، فإذا كان النصر حليف الكفر في مالطة فهيهات أن يتكرر في مصر التي اتحد فيها الأهالي تحت راية الجهاد، وباعوا أنفسهم وأمواهم لله عز وجل، فكان النصر حليفهم، وكان

جموع العدو ما بين قتلى وما بين مقيدي الأسر. والشاعر سيدي أحمد زروق، وهو يتحدث عن هذه الوقائع الحية من قلب المعركة، راح يذكر جيوش الكفر، ومن سار على هجمهم بوقائع معركة الشام التاريخية التي تحطمت فيها جيوش نابليون على أسوار عكة بفلسطين، ليخلص أخيراً إلى التضرع والدعاء راجياً دوام العزة للإسلام والمسلمين والتأييد لأئمتهم، والنصر لعساكرهم.

وفي المناسبة ذاقها عثرنا على مقطع من قصيدة⁸، نظمها الشيخ سيدي المختار الكنتي (1226)، واستنفر بها فوارس

المغرب العربي من عرب وعجم لنجدة هذا القطر العزيز مصر من براثن جيش الفرنسيين حيث يقول:

فلا غيور يذود عن مضاجعها	ولا جسم له عزم وإيقان
ظل هذا يذود القلب من أسف	إن كان في القلب إيمان وإحسان
يا أهل مغربنا هبوا لقارعة	كانت بساحتكم والقلب ولهان
أين الفوارس من عرب ومن عجم	أين السلوك وعدنان وقحطان
وراكبين جياذ الخيل صارمة	كأنها في مجال السيف أقيان
أحملوا على الروم.....	ولا تبغوا عليهم فإن النصر معوان
لا يدفع الكفر إلا باليقين فلا	تغرك منه عساكر وأعوان
لا تدفع الظلمة الدهماء غاشية	إلا بنور من الرحمان تبيان
لم تكفهم أندلس إذ أحاطوا بها	وسبته ومليبة و.....
حتى أتوكم بدار عزكم فغدوا	يسحون دينكم في الحين نقصان

ونرى الشيخ سيد المختار، وهو يحرر أبناء جلدته لنصرة إخوانهم في مصر العزيزة يذكرهم أولاً بضرورة الغيرة على مقدسات الأمة وثوابتها التي تمان هناك، في الوقت الذي غابت فيه فوارس الأمة من عرب وعجم وحاكمين ومحكومين. في مغربنا العربي. ثم يبين لهم بعد ذلك أن المعركة مع هؤلاء لا يحكمها العدد والعدة، ولا العساكر والأعوان، وإنما يحكمها ويفصل فيها ميزان اليقين، ونور العزيز الرحيم، لأنها معركة الإيمان والكفر. وفي الأخير ذكرهم بتاريخهم الطويل مع هؤلاء الأعداء حين استولوا على الأندلس وما جاورها من مدن سبته ومليبية وغيرها.

والشيخ سيدي المختار (1226هـ)⁹ بن سيدي أحمد بن أبي بكر الكنتي ولد سنة 1142هـ، بإقليم أزواد، درس أولاً على يدي أخيه الأكبر وعلى جده لأمه، ثم انتقل إلى مدينة تمبكتو، وبعدها أتصل بشيخه سيدي علي بن النجيب، وعنه أخذ معظم علومه. وعنه أيضاً أخذ أورد الطريقة القادرية، عاش حياته متنقلاً في إقليم أزواد الواقعة بين شرق موريتانيا وغرب النيجر وجنوب الجزائر، توفي يوم الأربعاء الخامس من شهر جمادى الأولى عام 1226هـ، عن عمر ناهز الرابعة والثمانين سنة. من آثاره عشرات المخطوطات في مختلف الفنون منها: ألفية في العربية، بلوغ الوسع في شرح الآيات التسع، تفسير البسملة، زوال الإلباس في طرد الوسواس الخناس، فتح الودود شرح المقصور والممدود، نضار الذهب في كل فن منتخب، وغيرها من المؤلفات وقد

عدّهما بعضهم (314) مؤلّفًا. ويوجد حاليًا بنيامي النيجرية مركز مخطوطات باسمه لمؤسسه أحمد دمة الكنتي. وبه عشرات المخطوطات كما أخبرنا مؤسسه. وفي عصرنا الحديث كان للمقاومة الجزائرية الباسلة ضد المحتل الفرنسي دور بارز في تحريك مشاعر التواتيين الذين تفاعلوا معها إيجابًا، وخلّفوا في ذلك عشرات القصائد والنصوص الإبداعية من أمثال الشاعر سيدي حمزة بن مالك القبلاوي، والشيخ سيدي البكري بن عبد الرحمان والشاعر سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمن السكوتي، وغيرهم. ومما وقفنا عليه في هذا المجال هو قصيدة الشاعر للشيخ حمزة بن مالك القبلاوي في مدح أهل إنغري حين هزموا الفرنسيين عام 1317 هـ الموافق لـ 1900 م. حيث يقول¹⁰:

يا أهل إنغريا أنصار دين الهدى	حزتم جميعاً أعز الفخر والسؤدد
مرابطكم وعربكم بأسرهم	كذا مواليكم يا ناصرين الهدى
إخواننا يا حماة الدين فُئِيهِكُمْ	نصر من الله دائماً لكم أبداً
نصرتكم ملة الإسلام بشرى لكم	أنصار دين الرسول المصطفى أحمد
دفعتم بمدافع مؤيدة	رجيعها يحتف العدا إذا غرد
ييضتم وجه أهل الدين بعد نُضُو	به كما بكم أسودت وجوه العدا
لا زال حيككم بالله منتصراً	دوماً وميتكم في الله مستشهداً
لا زلتم الدهر في حصن حصين وفي	وقاية الله آمين كل الردى
أسررتونا فلن نزال ندعوا لكم	بالنصر والظفر والشبات طول المدى
بالمصطفى خير تسليم عليه كذا	أزى صلاة تعمر الصحب أهل الندى

وهي قصيدة من بدايتها إلى نهايتها تمجيد وافتخار بما حققته جيوب المقاومة في هذه المناطق الصحراوية الصعبة. من نصر وإباء وأدخلوا بذلك الفرح والسرور على نفس الشاعر أولاً وعلى نفس كل غيور على الوطن والأمة الإسلامية قاطبة.

ولقد ضم الشيخ سيدي الحاج محمد عبد الرحمان بن محمد السكوتي صوته إلى صوت صديقه الشيخ سيدي حمزة بن مالك القبلاوي في الافتخار ببطولة أهل إنغري وشجاعتهم ومقاومتهم للعدو الفرنسي الغاشم حيث يقول هو الآخر¹¹:

يا أهل إنغري للسماء مجدكم	سما وصيتكم يعملو وينتشر
لله دركم بعتم نفوسكم	من الإله بجنة لها خطر
فحبذا ذلك من يبعه وعاقده	وحبذا ثمن قد ساقه القدر
جاهدتم بنفوسكم وأموالكم	في الله لا مسكم أذى ولا ضرر
طوبى لكم حزتم الرضوان الأكبر من	إلهكم معه مفاخر أحر
بشرى وروح ورحمة ومغفرة	فاستبشروا برضى الإله وافتخروا

نصر من الله مع فتح قريب و عو
 والنصر يصحبكم متى توجهتم
 وعداً على الله حقاً سوف ينجزه
 حازوا جميع المعالي والفخار فلم
 لم يرهبوا كثرة العدو إذ جمعوا
 إذ أيقنوا بعد ذا بنصر وبهم
 من ينصر الله ينصره ويظفره
 فالنصرءات لجند الله حقاً كما
 يمشون أن حمى الوطيس يوم الوغى
 يرجون في ذا كرم رضوان خالقهم
 فالدين عز بهم جنباه واحتمى
 رمت حماهم كلاب الروم من سفه
 راموا خزايا حيارى يحملون على
 فالأرض من دم كلماهم ملونة
 قل للكوافر أن نظمتم حيلة
 وأن جمعتم عليهم جنود الردى
 هام العدا نشروا نظم شمل الهدى
 فأصبح الدين في عز وفي صد
 إلى الحفيض ولا زالت وجوه العدا
 بشرى لدين الهدى نصر يعز به
 أبقاكم الله تنصرون دين الهدى
 كسوتهم الناس لبس العزم من بعدما
 كساكم من جميل الذكر فعلكم
 أركى الصلاة على أولى الأنام بها

وبعد سقوط توات كتب سيدي محمد البكري بن عبد الرحمن قصيدة رثاء وتوسل إلى الله تعالى حيث يقول¹²:

في توات وجازفوا بفساد

رب إن فرانس الكفر جاروا

وأضلوا وخاطروا بعناد	ختلوا قتلوا وصلوا وناولوا
واحدًا أحدًا بلا أضداد	خوفوا أمة توحد ربًا
لا ولم يشركوا برب العباد	لم يقولوا اتخذت يا رب نجلاً
دأ مع الله جل عن أنداد	لا ولم يجعلوا صليلاً ولان
رب الذنوب بدور شرك معاد	ووعدهم إلهي بغضرا
رب جور وحبوب وبعاد	إن تسلط عليهم أمة الكف
تهمر أبداً وطول الأمداد	فعلى المشركين فاردد لهم كر
قطرنا من منافقين شراد	وعلى كل من يواددهم من
يبقى في الأرض مومن ذو رشاد	رب إن قهلك أمة المصطفى لم
أخرجت فانصرت بنصر يفاذ	رب إنك قلت هم خير أمة
قدمفى كرة على أوغاد	قد رددت لنسل يعقوب فيما
ق عليك وأصفى في كل ناد	فلا أمة أحمد أكرم الخلد
وعلى ءاله الطوال النجاد	صل ياربنا وسلم عليه
الشرك يلمع نوره في البلاد	من بداية نوره في ظلام

ولعل من أهم وأندر الكتابات الثغرية التي سجلت حضورها مع المقاومة نجد نص الشيخ سيدي محمد البكري بن عبد الرحمن الذي كتب نغماً مطوّلاً، يصف فيه ما حل بتوات بعد دخول الفرنسيين أراضيها.

والنص في مضمونه واحد من أهم الوثائق التاريخية التي شارك بها الكتاب مجموع المؤرخين في تسجيلهم لشهادتهم ومعاشتهم لأحداث عصرهم حيث أن الرجل لم يكتف بعرض ما وقعت عليه عينه من أحداث بل تعداها إلى وصف بعض المقاطع المكملة للمشهد من ضبط لزمان ومكان الهجوم شمالا وجنوبا بداية، مروراً بأهم المظاهر الاجتماعية المتفشية في المجتمع قبيل الاحتلال، والتي رأها سبباً مباشراً في تسهيل دخول العدو، ووصولاً إلى الحديث عن أهم الوسائل المستعملة مادياً ومعنوياً في النيل من أبناء الإقليم، وهو ما تطلب في النهاية حسب قوله التسليم بالقضاء دون المثقفي به، لأن الرضى فيها بالقضاء - كما قال استسلام، والرضى بالمقضى فيها اجترام. وفي كل ذلك يقول¹³:

"الحمد لله الذي جعل الحكم يدور مع العلة وجوذاً وعلماً، وطبق الأحكام على النوازل قوانين وحكماً، وجعل من الكتاب السنة كليات تشتمل على أفراد وجزئيات، والصلاة والسلام على بحر العلم وينبوع الزخار، الذي لا يطمع أن يلجئه ملك ولا نبي مرسل ولا صديق فضلاً عن أن يبيلغ عمقه التيار، وعلى ءاله وصحبه السادات النبلاء الأطواد، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم يقوم الأشهاد. أما بعد: فقد تجدد على هذا الإقليم التواتي، ما كان يخاف عليه منه قبل الآن، وهو تحافت طاغية الفرنسيين عليه

لعنة الله، بالعدو والعدو، والأزل والذلل، والقتل والأسر، بعامة سبعة عشر وثلاثمائة وألف، في طرفه الجنوبي، الذي هو عين صالح، ثم في طرفه الشمالي في هذا العام الثامن عشر. وما نزلت العقوبة بهذا الإقليم، إلا بعد شهادة خياره عليه بنهاية المنكر والظلم والفسق والمجون، والرشوة والرين والحرام، وغير ذلك من مترفيه، وغير مترفيه، ولم يتناهاوا عن منكر، ومن تصدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سموه مسخرة ورموه بالحرق والبله والجنون، وربما اغتاله في شبكة كيدهم ومكرهم وحيلهم دأب الشاة مع الذباب، وصار المنكر معروفاً عندهم، والمعروف منكراً، وصارت قوادهم... جباة الأموال، لا دعاة، وكانوا بذلك أطمع من أشعب وأروغ من ثعلب، وأمكر من هرمن، وأحيل من زيب، وأبطش من أسد، حتى عجت هذه الأرض إلى الله من ظلمهم، مع توحيدهم ومعرفتهم، قال العاصي: وأن الجنة حق وأن النار حق، فسلط الله عليهم من لا يعرفه من غيرهم من الكفرة، كما سلط الله بخت نصر، على بني إسرائيل، بعد شهادة أنبيائهم عليهم بالظلم والفسق والجور والتعدي، فلما كان ما كان وانتدبت عصابة من هذا الإقليم لرد الكفرة المذكورين فلم تكن عاقبة، لا والله قد ضمن العاقبة للمتقين، فإننا لله وإنا إليه راجعون، على ما حدث من هذا الحادث العظيم، الذي احترقت منه الأكباد، لولا التفويض والتسليم لرب العباد، وقد رضينا بقضاء الله في هذه الحادثة لإخواننا المسلمين من القتل والأسر وضياع الأموال، وما رضينا بالمقضى به لهم، وهو الولاية الكفرانية، لأن الرضى بالمعصية معصية، وبالكفر كفر، وهذه المسألة التي يرضى فيها بالقضاء دون المقضى به، كان الرضى فيها بالقضاء استسلام والرضى بالمقضى فيها اجترام...". والنص إلى جانب كونه وثيقة تاريخية مهمة في تاريخ المقاومة بالإقليم، فإنه جاء يحمل كثيراً من بصمات الكاتب الإبداعية، وحسن استغلاله لمعجمه اللغوي الذي جاء بسيطاً ومنسجماً يتطلع إلى إيصال الفكرة من أقرب الطرق الممكنة، وبأبسط الوسائل المتاحة، ولذلك رأينا يستعين أحياناً برصيده الثقافي والمعرفي في تقريب الصورة من جهة وبما أتى له من عنصر البيان والبديع من غير ما إفراط أو تفريط من جهة أخرى.

الخاتمة

الخلاصة أن مجمل هذه القصائد جاءت في مضمونها وموضوعاتها لتعكس ثقافة ووعي أصحابها وما لف حولها من أجواء قومية ووطنية خاصة استمدت معالمها من طابع الموضوع الحساس ومن موقع الإقليم المتميز. ولذلك فإن جل ما وقفنا عليه من إنتاج التواتيين في هذه الموضوع قد طبع بميزة البساطة والسهولة لغة وأسلوباً، بعيداً عن الغرابة والتعقيد، وفي ظننا أن هذا الأمر لم يكن باختيار الشعراء أنفسهم بل كان نتيجة حتمية لحال مجتمع غلبت عليه الأمية وتعقبتة أحياناً إلى مدارس تحفيظ القرآن والأحاديث النبوية المنتشرة في الإقليم. ونتيجة لكل هذا وذلك راح الشعراء يعبرون عن معانيهم بألفاظ وتراكيب سهلة بعيدة عن الخيال المجانح والتصوير المعقد والرمز الغامض. وبهذه النماذج الأدبية يمكن القول أن شعراء توات لم يكن ليفصلهم عن هموم أمتهم وقضايا دينهم حاجز الزمان والمكان أو بقية الحواجز الأخرى، فسلجوا حضورهم القومي بكل عز وافتخار، وكانت هذه النصوص خير شاهد على تأثر هؤلاء جميعاً بمجريات أحداث الأمة، فشاركوا في الزود عنها أولاً، والتأريخ لها ثانياً، وهو ما يعكس ثقافة الجميع ومتابعتهم لكافة الأحداث التاريخية.

المصادر والمراجع

- 1 ينظر: أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب، 1990م، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان، ج 1، ص 173. وأ.د. الربيعي بن سلامة وآخرون: موسوعة الشعر الجزائري، دار الهدى، 2002م، الطبعة الأولى، عين مليلة الجزائر، ج 1، ص 184183.
- 2 المقصود هي الحملة الصليبية الفرنسية على مصر بقيادة نابليون في سنوات 1801-1798م، وضربه الأزهر الشريف بالقنابل من القلعة، واتخاذ اصطبلًا للخيول، ومحاولة اقتلاع المصريين عنوة من الإسلام. ينظر: محمد قطب: وقعنا المعاصر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1989م، الطبعة الثانية، الوعاية الجزائر، ص 204 وما بعدها. ود. علاء طاهر: كتاب العالم الإسلامي في الإستراتيجيات العالمية المعاصرة، دار بلال، 1998م، الطبعة الأولى، بيروت لبنان، ص 345 وما بعدها.
- 3 مخطوط القصيدة في خزانة قصر باعبد الله أدرار، الجزائر.
- 4 ينظر ترجمته في: محمد بن عبد القادر بن عمر التنلاي: الدررة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، خزانة قصر كوسام، ولاية أدرار، ص 5، وما بعدها، والشيخ محمد باي بلعالم: الغصن الداني في ترجمة وحياتة الشيخ سيدي عبد الرحمان بن عمر التنلاي، 2005م، الجزائر، ص 8.
- 5 ينظر: سيدي أحمد زوق: مخطوط قصيدة في نسب آل جعفر بزواية بوذة أدرار. ومخطوط الدررة الفاخرة، ص 5، ومخطوط غنية المقتصد السائل فيما وقع بتوات من القضايا والمسائل: جمع مشترك بين سيدي الحاج محمد بن عبد الرحمان، وابنه سيدي عبد العزيز وسيدي محمد العالم البكري بن سيدي محمد الجزولي، خزانة تمنطيط أدرار، ص 8. وكتاب التاريخ الثقافي لإقليم توات، ص 116 وما بعدها. والصدیق الحاج أحمد: التاريخ الثقافي لإقليم توات من القرن 11 إلى القرن 14 هـ / 17 إلى 20 م، 2003م، الجزائر. والشيخ مولاي التهامي: سلسلة النواة في إبراز شخصيات من علماء وصالحی إقليم توات، مارس 2005م، المطبعة الحديثة للفنون المطبعية، الجزائر، ج 1، ص 114.
- 6 القصيدة جاءت مخطوطة في نسختين (أ) و(ب)، وهي من البحر السريع وفي ثلاثين بيتا. ينظر: خزانة قصر بوذة أدرار، وخزانة قصر باعبد الله
- 7 ينظر: محمد قطب: واقعنا المعاصر، الطبعة الثانية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 1989م، ص 204 وما بعدها.
- 8 ينظر: قبيلة كتنة بين إقليمي توات والأزواد دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية أثناء القرنين 13-12 هـ.: رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر: إعداد محمد حوتية، إشراف ناصر الدين سعيدوني، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1412هـ. 1993م، ص 183.
- 9 ينظر ترجمته في: الشيخ سيدي محمد بن المختار: الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد، خزانة قصر زاوية كتنة أدرار مخطوط الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد، وكتاب التاريخ الثقافي لإقليم توات، ص 120 وما بعدها، وأبو عبد الله الطالب محمد: فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م، ص 152 وما بعدها، وبول مارتى: كتنة الشريقيون، تعريب محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت دمشق، ص 39 وما بعدها، والشيخ سيد المختار الكنتي: فتح الودود شرح المقصور والممدود، تحقيق مأمون محمد أحمد، 1423هـ / 2002م، ص 9 وما بعدها.
- 10 ينظر: مخطوط القصيدة في خزانة باعبد الله بأدرار، ص 5.
- 11 ينظر: مخطوط القصيدة في خزانة باعبد الله بأدرار، ص 12.
- 12 ينظر: مخطوط القصيدة في خزانة البكرين بتمنطيط، ص 9.
- 13 ينظر: مخطوط المقال في خزانة البكرين بتمنطيط، ص 6.